

رثاء الأم لدى أبي العلاء المعري (أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات - جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة—هذا الموضوع يتناول ما رثى أبو العلاء المعري أمه برثاء اختلطت فيه الحكمة والفلسفة بالحزن والألم.

الكلمات المفتاحية: أبو العلاء، المعري، المعرة، الرثاء، القرن الرابع، الشام.

I. المقدمة

رثى أبو العلاء أمه رثاء حارا تميز بعمق الأفكار المطروحة وفلسفتها وجزالة الألفاظ وامتداد الصور وامتداد الصور وعمق الخيال، ولا يخلو رثاؤه لأمه من العاطفة وإن كانت تلك العاطفة لا تسفر عن نفسها بقوة مثلما هي في رثاء الصنوبري أو أبي فراس.

وأكبرُ أن يرثيها لِساني بلفظ سالكِ طرُقِ الطعام
يقال فيهنم الأنياب قوْل يباشِرُها بآباءِ عظام
كأن نواجِدي زديت بصخرٍ ولم يغرُزُ بهنَّ سوى كلامي
ومن لي أن أصوغ الشُّبَّ شِعْراً فألبسَ قَبْرَها سِمطي نظام^(٣)

II. موضوع المقالة

حين تنتقل إلى أبي العلاء المعري في رثائه لأمه- نجد مذاقا مميذا ونهجاً مختلفاً في رثاء الأم يصطبغ بطريقته الخاصة في شعره؛ حيث عمق الأفكار وفلسفتها، وجزالة الألفاظ وامتانتها، وامتداد الصور وعمق الخيال، ولا يخلو رثاؤه لأمه من العاطفة وإن كانت تلك العاطفة لا تسفر عن نفسها بقوة مثلما هي في رثاء الصنوبري أو أبي فراس.

ولأم أبي العلاء في نفسه مكانة خاصة لا تعدلها مكانة يدل عليها قوله من رسالة كتب بها إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة عندما غادر العراق متوجهاً إلى معرة النعمان فوجد أمه قد توفيت ولم يكن قد علم قبل مقدمه بذلك: "وحزني لفقدها" - أي أمه - "كنعيم أهل الجنة كلما نفذ جدد"^(١).

فحزنه على أمه ليس حزناً عادياً يبقى لبعض الوقت ثم ينقضي، وإنما هو حزن مستمر لا ينقطع، خالد ما ظل على قيد الحياة.

ولم يكن كلام أبي العلاء مجرد كلام يقال؛ فقد دعم أقواله بالفعل فاعتزل الناس وأغلق عليه بابيه وأصبح رهين المحبسين - بيته وذهاب بصره - طوال حياته، وربما لم يكن موت أمه هو السبب الوحيد في اعتزاله غير أنه كان نقطة تحول واضحة في حياته كما قرر غير واحد من الدارسين^(٢).

يقول أبو العلاء:

فيا ركب المنون أما رسولٌ يبيغ رُوحها أرح السَّلام

(٣) شروح سقط الزند. تحقيق الأستاذة: مصطفى السقا، عبد الرحيم محمود، عبد السلام هارون، إبراهيم الإبياري، حامد عبد المجيد، وإشراف الأستاذ الدكتور: طه حسين (المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة - طبعة مصورة عن نسخة دار الكتب سنة ١٩٤٥م) القسم الرابع. ص ١٤١٣-١٤١٩.

(٤) شروح سقط الزند، وهذا الشرح للبطلوسي، وقد قال عنه: "وهذا معنى لا أحفظه لغيره" القسم الرابع. ص ١٤١٧.

إتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء - دراسة وإعداد: محمد عبد (1) الحكيم القاضي، محمد عبد الرازق عرفات - ط ١ (دار الحديث - القاهرة - ١٩٨٩م) ص ١٦٨.

(٢) تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: "بموت أمه بدأ إحساسه العميق بأنه أشبه بغصن مجتث ملقى، بلا جذور ولا فروع، فلقد كان من بين ما قرَّ عليه عزمه، وهو ينسحب إلى محبسه، ألا يتزوج ولا يلد، كي لا يبتلي ولدًا له بمحنة الوجود". أبو العلاء المعري - بنت الشاطئ (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة) ص ١٣٤.

ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافِرُ مِنْهُ يَمْتَلِ الْمِسْكُ مَقْضُوضِ الْجَتَامِ